باتجاه مصادفة ما

العربي عبد الوهاب



الهيئة العامة لقصور الثقافة
إقليم شرق الدلتا الثقافي
فرع ثقافة الشرقية



قصص

باتجاه مصادفة ما

قصص

العربى عبدالوهاب

إهـداء

إلى الشمعة التى أضاءت قلبى فى ليال باردة

وقالت اكتب

فقلت : ها لكِ يا سيدتى

و حبيبتى وزوجتى

كل ما خط قلبى

ومحبتى الخالصة

عفوا سيدى الحزن

فى السابعة إلا الربع تقريبا

(1)

حين كانت برودة الصباح تغزو الأوصال وتفيق البيوت من نعاسها الليلى كان سائقو العربات وعاملو المزلقانات ورجال المرور يهشون النوم عن أحداقهم ويفتحون بصعوبة طريقا لهم وسط الشبورة الكاسية .

لم يذكر بالضبط متى بدأت عيناه ترقبان عقارب الساعة وهو يحاول الانفلات من إسارها ، ثم يجد نفسه فى الشارع مقتربا من الناصية فى السابعة إلا الربع تقريبا حيث تحاذيه عابرة باتجاه الطريق العام ، حيث تلتقط العربات تلك التجمعات الصباحية الصغيرة وتفر إلى مدينة العاشر الصناعية كالعادة .

على غير وجهتها كان يسير قاصدا إحدى المصالح الحكومية ، حين تدب بخطوها الوثاب نازلة سلم البيت ، يكون هو قد استقبل برودة الشتاء وتكون هى قد ودعت حلاوة النوم ولململت جسدها المنغوم فى حيز الجيب الأسود المحبوك على تلك التفاصيل متلاقيا مع بلوزة موهير بيضاء ، ويترجرج الجسد إثر تعجل القدمين اللتين تتركان للحذاء فرصة عزف إيقاع متدلل .. ويستكمل معها الإيقاع .

كان يوازن بين تعجله وبين وصوله للناصية . حين يعبر كل منهما الآخر مانحا صاحبه ابتسامه دافئة ويمضى فى طريقه ؛ فى ذلك الوقت يصحو ـ هناك . الخفير مودعا زوجته وعياله الذين يهشون لمقدمه فى الحلم ،على وجه موظف الأمن بصرامته المعهودة ، فينهض ليعد شاى الصباح فى تكاسل ويفتح بوابة المصنع الكبيرة ،فى انتظار القادمين لوردية النهار.

(2)

ربما بعد ساعة تقريبا من إيقاظ الخفير تدب الحركة وتطلع الوجوه الليلية متعجلة ، تمنى نفسها بالركون إلى دفء العربات ، تعبر وجوه النهار البشوشة ، يتبادلون التحية محاولين بعث روح الحياة فوق ملامحهم المتعبة .

الآن يجلس الخفير القرفصاء حول السخان ، وسط كشك الأمن الزجاجى فى انتظار الشاى أن يدخل فى الغليان.. يتبادل بضع كلمات فاترة مع موظف الأمن المنشغل بانفلاق أول خيط للنهار من رحم الأمس .

ويهاتف رئيس الأمن ـ النائم الآن ـ كى يستعد للنزول ويشرب الشاى .

(3)

قبل أيام كان الشاب يحاول أن يستوقفها عند الناصية فى السابعة إلا الربع تقريبا ، لكنها ارتبكت وسقط منها الكارت الذى يحمل صورته

الشخصية وهو يتجول وحيدا .. ولما ارتبكت ، ولم تلتفت إلا لعينيه الحالمتين .أصابه الخرس ثم فر هاربا كمن خدش حياء الشارع ، فقرر أن يطرق البيوت من أبوابها .. أصابع يدها اليسرى كانت دوما محتمية بالجيب ، واليمنى بعيدة عنه بحكم مجيئه عن يسارها .. قال لنفسه " ربما يكون ارتباكها مرجعه إلى تجاوزه إطار المصادفة .

هل كانت حيرته ترجع إلى الإحساس الحقيقى أم للعادة ؟!! "

(4)

بعدما ترحل الشبورة عن مناطق المدينة الصناعية ،مخلفة أشعة الشمس التى تلاطف أعين السائقين أمام المصانع ، فيرسل كل واحد . منهم ومنهن . عينيه ملوحا ، واعدا نفسه بقضاء إجازة الأسبوع فى أحضانها .إذا لم يكن مضطرا إلى التطبيق .

(5)

فى تمام الثانية عشرة تقريبا ..يرفس البك غطاءه الدافئ ويهبط متكاسلا درجات السلم الداخلى ، واصلا إلى حجرة الطعام بعدما يكون قد قطع مسافة طويلة داخل الهول ...ثم يرتدى على مهل ملابسه الأنيقة جدا .

ويقود سيارته الحديثة جدا .

ويخطو نحو الحياة بقلب من حديد .

(6)

تغيبت بعد محاولة إعطائها الكارت بيوم واحد ،وفى السابعة إلا الربع صباحا لام نفسه لأنه ترك الكارت على الأرض وفر خجلان آسفا .كما همس لنفسه أن يغير الشارع .. صحيح أنه حاول أن يهشم حاجز الخجل ويسألها ، أن تفلت يدها اليسرى من الجيب ، وتغيبت وأصر أن يكون ابنا حقيقا للبلادة ،ولم يفلح .

(7)

قال الخفير وهو يدلى بشهادته : كان البك فى طريقه الصحيح حين فتح له بوابة المصنع .. وأنه شاهدها تتمايل بخطواتها على الإسفلت ؛ وقال موظف الأمن كانت قد ختمت منى إذنا بالخروج للتأمين الصحى ، ومرقت من البوابة الصغيرة للمصنع سائرة على الطوار حين سمعنا أنا والخفير فرامل سيارة البك وارتج سور المصنع من شدة الارتطام وأضاف بجلد ولم تكن البوابة الكبيرة مفتوحة ولم أسمع زامرة السيارة . قال أحد المارة وقال الخفير وموظف الأمن . الذى رفت بعد يومين تماما . أنها كانت تبتسم ويدها اليسرى مطروحة فوق محتويات حقيبتها وأسفل اليد كارت قديم مضرج بدمائها.

عمال البوفيه يجمعون البراويز

يمكننا الآن أن نأخذ وقتا مستقطعا بين تهافت الحكايات وكؤوس الخمر المضروبة ، تلك التى تلعب بالرؤوس ، حيث تئن الطاولات تحت لمبات بضوء خافت لمقاعد تزدحم بالعابرين ؛
ويمكننا أن نقدم إيضاحا هامشيا ، ربما يجذب السيد من وهاد التقوقع عندما نجمع ذلك الشتات داخل البرواز ، وندفع به إلى آفاق التجلى ، فالوحدة ترمى بالغريب إلى خياله الرث ؛ عندئذ يسند الجندى قامة سيده ، يلم ثوب المهابة ، من بين أرجل الغرباء ، فى مدينة واسعة بلا قلب .

(1)

هو السيد الذى مد ساقيه باتجاه مجمع البحرين ونادى . هناك . فلم يجبه سوى هدير الموج ، لأنه كان مشغولا ببزته العسكرية ، وبتلميع أزرارها ؛ وبالجندى الذى استنشق رائحة البحر ولم يراقب الوضع جيدا حتى انسرب الحوت من بينهما ، فتذكر السيد امرأته وعياله منذ أربع سنوات . تقريبا . وذكره الجندى بأنه طلقها ، فاستراح .. وسمح لرئتيه أن تنفتحا باتساع البحر ثم يفرد طوله على مقعد من قماش وخشب ويقول

: ما أنسانيهم سوى انشغإلى بالعصافير ، وما تجمع منهم بالمخلاة ، وباليمام على الشجر .

يتحسس شعيرات ذقنه ، يجئ الحلاق ، ينز بالحكايات فوق سجادة من الماء تداعب قدمى السيد .

كأن الحياة تخلع عليه ثوب الطمأنينة، يبتسم إذ تلمع أمام عينيه مراكب ورقية صغيرة فى البعيد .. يكون الجندى قد أعد قهوة مرة ودخل بها إلى السيد مع من سقطوا بنيران صديقة ، إذ كانوا يستحمون بشمس خريفية والنخيل عال لا تطاله الحجارة .

فى ذات المساء حكى له عن دموع باردة تجمدت فى أبراج المراقبة .. هناك ، فيهز السيد رأسه ويمر عليها الجندى كالطيف ، وحين يراه داخلا فى طيات الموج ينسحب ، لتحضر أمام السيد . واقعة الاختراق . ليلة دخوله بامرأته ، بعدما انفك من حوله الناس قام إلى الأبواب ، أوصد أمامها كل منفذ .

تطلعت إلى وجهه المحتقن . كادت تصرخ وكان يزداد . مع تقدم الليل احمرارا وعرقا ، وهى تتلوى ، وهو يقول ربما تناولت قرص المهدئ بدلا من الفياجرا .

تمسد ظهره بأسى : نجرب غدا ؛ تلطمه الأمواج بملوحتها .

هى امرأة تعرف كيف تتحول إلى قطة تتمسح بحضن سيدها ؛

وهو يا سادتى . تصحيحا لمسار القصة . لم يكن أبدا لغزا أو رمزا : ما هو إلا رجل ترك أذنيه لصفير المعارك أن تغزو غرفة نومه ، ولم يخلع نفسه من الميدان حين يندس بحضن امرأته .

(2)

نحن عمال البوفيه نستقبل كل يوم عشرات الرواد .. الممثلين اللامعين ، مجانين الشهرة ، المذيعين ، رجال السرك المعروفين ، كاتبى الأغانى الفضائية ، بعض من المساهمين فى صنع القرار .. هؤلاء الذين أقنعونا بأنهم حماة لنا إذا دبت المشاجرات الليلية ، نضرب أرقام هواتفهم المحمولة ، ثم نعود . بفضلهم . إلى جمع البراويز ، مزق الصور ، وبمكنسة كهربائية نلملم الشظايا ..

هأنذا أحمل بعضا من حكاياتهم الخرافية عن أدوارهم التقليدية ، وأتهيأ للعبور من وراء المشهد .

(3)

جاءتها ورقة الطلاق بعد ثلاثة عشر عاما تقريبا .. كان البرد يحاصر الأجساد وذكرى أول ليلة تضغط .. لم تزل واقعة الاختراق متمددة بطول البحر ، بعد فك العملات وربط الأحبة تغذية المشايخ ، وإقامة موائد الرحمن ؛ سوف تجد إمرأته عظام دجاج ملفوف بأشرطة حمراء

وسوداء ، كلما سألت لا يجيب ؛ حتى دخلت عليه ذات صباح عائدة من السوق فشمت رائحة كريهة ، كانت إحدى عشرة خنفساء تطقطق فوق نار البوتاجاز الزرقاء .. طقطقة العظام لن تنمحى ، ولن تتمكن من إثنائه عن شى الخنافس . لذلك سقطت على ظهرها ، إثر دفعه لها ، فارتفع ساقاها الأبيضان . لم يلتفت . وأدار لهما ظهره .

(4)

هو السيد الذى يمد خطواته على اتساع ، يرسم على الرمل خارطة لمدينة قديمة وبشرا أقزاما ، يكوم من الرمل سارية ، ويمضى .

فى ذلك المساء وقف وحيدا يمعن النظر فى كائنات الرمل ويقول :

أحذركم مغبة الأيام ، وأحذركم غضبتى ؛

أنا من ألهم الشعراء خيالاتهم ، ومن ألهب ظهر امرأته بسياط الرغبة ، أنا السيد .

ثم غفا ، ولما أفاق أكمل :

أنا بن جلا وجلاب المنايا ..

أيها الجنود

كانت ساحة البوفيه تعج بالضحك ، وقصاصات من ورق تتساقط ، يتهشم البرواز رويدا رويدا . وهو يلاحق زمنا آبقا ، وعمرا كالمراكب الورقية ، وامرأة وعيالا ، ودفئا بعيدا يمس الروح .

(5)

هو السيد الذى مد ساقيه باتجاه مجمع البحرين ، فنسى الحوت ، أو تناسى لقاءه المرتقب ، لأنه كان مشغولا . كما أسلفنا . ببزته العسكرية ، وبالجندى الذى لم يراقب الوضع جيدا ، فأخذته الدهشة من مرأى سفن تمطر البر بالصواريخ ، والمختبئين فى شقوق الأرض ، وأبراج المراقبة ، ولا أحد .

أجابه معلمه بعد لأى (إنك لن تستطيع معى صبرا) أحس بوخز البرودة .. وأن أكوام الرمل على البحر والمخلوقات البدائية لم يكونا محض حلم .. وأن ابنته على مقاعد الخشب فى الجامعة ، وفى الردهات المظلمة تنتظر ؛

وهو يحاول تفسير العلاقة بين قدمى الطائر العالقة ، وبين الرصاصة البعيدة المنتظرة .. إنك لن تستطيع معى صبرا .

تنادى ابنته : ياسيدى .. من يفك رموز سيرتك ، ومن ينتظرك عند آخر الشوط ليعلن لك بكل وضوح : تعبنا.

(6)

كان عادة ما يواجه الحياة بالسباب ، يواجه عياله بلطماته المفاجئة ، يذهب بعساكره إلى المناطق النائية ويخلع عن نفسه ملابسه تماما ، يحاول المروق إلى البرواز .

يتهامسون : يجب أن نأخذ حذرنا .

وتقول امرأته : لماذا تهجرنا يا سيدى ، وترمى بورقة الطلاق عبر ساعى البريد .. إنه يراودنى عن نفسى بورقة وشاهدين ؛

لم ينتبه .

أكملت : ما أنا سوى امرأة تحاصرها البرودة ، وكان هو يحاول للمرة الواحدة بعد الألف الدخول إلى حيز البرواز .

كأنه يحادث طيفها هناك ، يقول بأنه لعب كل الأدوار، كان المذيع ، ومعد البرامج ، وكاتب التقارير ، ولاعب السيرك ، وعامل البوفيه ، وصائد العصافير .

حينئذ يتحسس مخلاته ، وبندقية صيده ؛ يراقب فى الليل الأشجار ، يصوب ليتلاقى . عند مسار الضوء . القاتل والضحية ، يتحدان فى رصاصة واحدة .

(7)

يوم أن اعتدل ظهر امرأته ، وخرجت من المطبخ ، كى ترد عليه شتائمه ، هب بجوعه القديم ، أغلق الباب على عياله ثم اقترب منها .. بانت

نعومته النادرة .. تملاها برغبة المحموم وأغمض عينيه . على أنوثتها العارمة . كمن يمارس فى حلم يقظته يوميا .

هو السيد الذى خرج مؤخرا فى حركة الترقيات ؛ لم يصبه الدور ، حيث صار كرشا برجل ، ولم تتمكن الإبر الصينية من إذابة تلال الدهون .

قد تراه طالعا . هكذا . يمسك بندقيته من المنتصف كعصا ، سائرا بنفس الخطوات المنتظمة ، بلا جندى يتبعه ، وحده ينظم عربات السرفيس وإشارات المرور .

قد تراه ابنته عندما تهبط بقدمها إلى رصيف القطار بشعر هائش وذقن كالمقشة ، وبذات العيون الجامدة ، تتأمله لثوان قبل أن يبتلعها الزحام .

وتراه فى الأفلام القديمة فتضحك شاعرا أن ثمة إنسان خفى يعريك .

يتوقف أمامه بعض العابرين ناظرين للنموذج العصرى الدال على رداءة الموكيت .

ويتساءلون عن عمال النظافة الذين لم يتمكنوا حتى الآن من جمع كل تلك النفايات .

"حـــدوة حصـــان"

[1]

تقاربت المقاعد دونما تلامس ..مسافات محسوبة بدقة متشابهة فى التقعر، فى التلهف للخلاص من برودة الليل .. أفاقت على ملاطفات خرقة صفراء بيد العامل العجوز، كان منحنيا بطبعه ،يتطاير الغبار داخلاً أنفه وصدره، ويده دائرة حول الحواف .تذكر الأطباق الوسخة ، باقتراب موعد الاجتماع . مازالت المياه نائمة ، تخاصم الصنبور . حاول أن يصلب عوده ، لتتمكن عيناه من رؤية ساعة الحائط ، فاجأته دقات رتيبة ، ولَّى وجهه شطر البوفيه ،حتى ابتلعته ضبابية المكان .

[2]

قال أحدهم : هذا تكليف وليس تشريفاً .

رمقته السيدة المصبوغة وكادت تضحك .. كان مهندماً ، يتسحب صوته بخفة الثعبان .

همس البعيد لجاره . لحظة أن غرق المتحدث في قعر الفنجان .

: ماله هو ؟!!

: جائز أنه صار الرئيس .

: هكذا !!

وهمست سيدة الجاكت الأسود للمصبوغة : يا أختي على فصاحته ! ، ثم نهضت قائلة : هيا يا جماعة .. طالما تم تعيين الرئيس .

همهـم الحاضـرون بانـدهاش ، أردفـت المصـبوغة : إنهـا تمـزح .. هـو متطوع .. لا أكثر .

لم ينطق المهندم [المتحدث] خوفاً على عدد الأصوات لذلك عدَّل من حَبْك الكرافت ، شاعراً بنحافته المؤقتة .

عمَّ لغط .كالعادة . وتناثرت تساؤلات جانبية ، فتكسرت ثلاثة فناجين قهوة ، كوب ماء ، قلم ، وتمزقت ورقتان بين أصابعهم المرتجفة .

[3]

مؤسسة غارقة في الضباب .. تستقرئ الفخاخ ، تعيد ترتيب الأوراق .. يتحسس البعض قدميه خائفاً ، ثمة أشراك تتوخاها أقدام لاهثة .

والفناء ـمازال . يحف بالأطفال .

كل صباح ، تتقابل عيون زائغة ، بأخرى دامعة ، بأقلام حمراء ، بدفاتر التأخيرات ، فتنسرب الآهات إلى تجاويف الحوائط .

كـان الزجـاج مسـجوناً وسـط حـواف الشـبابيك ، خشـب واهـن ، أفـرغ أمعاءه السوس ، سوس .. فئران .. أوراق .. دفاتر بلا مبرر .

تغطت . الآن . بهالة الضباب ،

وتبخرت .

[4]

لحظة أن مرق من بين قدميه ، لم يلتفت ، فتربص الفأر بالعامل العجوز ، وفاجأه عندما رفعت يداه صينية محتشدة بالفناجين ، ظهره المنحني كان أقرب لاحتواء الصينية قبل السقوط.

قال : هكذا يا فأر الغبار .. وابتسم

كان البوفيه موئلاً لفئران متباينة الأحجام ، اعتادت ملاطفة العامل .

قبل أن يطرق الباب على المجتمعين همس : مؤسسة ممتلئة بالزواحف والسحالي والفئران .. يا الله !!

ثم هز رأسه . بلا مبالاة . ودق الباب .

[5]

اتفقوا أخيراً .

: أن يُخرج كل واحد أسلحته .. تم تعيين لجنة للتقييم .. تراجعت اللجنة واحتست . بمفردها . فناجين القهوة ، وتجشأت . كاد النوم يخطَّف أبصارهم ، لولا ارتفاع اللغط ، وبعض الأصوات .. تقلبوا في مقاعدهم ذات اليمين وذات اليسار . أفاقوا على سيدة الجاكت ، مادةً يديها في قعر جيوبها .. بانت وريقات ملفوفة بعناية . وقرأت (نظرات

متأنية . أشراك الاختبارات الصغيرة . علاقات منفردة . فخاخ . فوق الجميع)

وانسحب صوتها المتقطع فجأة .

كادت تنفلت ضحكة "المصبوغة" ساخرة ، طوال الاجتماع يرتفع حاجباها إلى أعلى ويهبطان بهدوء ساحبين نفس السخرية .

بمجيء دورها .. أفرغت جيوبها .كيفما اتفق . عن لا شئ . وسط اندهاش الحضور ، أشارت إلى منطقة في الدماغ. لم تصل إليها الأصباغ . بسبابة يدها اليمنى ، وقالت : بهذا .. فقط يا سادة .

ابتسامتها المنسحبة أبانت هوَّة عميقة بلا قرار .

: يا ستار .. وتطلع ذو اللحية الخفيفة للسماء طالباً نجدة عاجلة .. لمَّا جاء دوره .. فقط ..تطلع للسقف لحظة وأعلنت جيوبه براءتها من الأسلحة .. ثم قال : واحد .

استقرت أثناء ذلك حدوة حصان لامعة ، فضية ، تجاورها عصا لولبية صغيرة ، صاحبتها ابتسامة المهندم الذي تراجع بمقعده للوراء ، فصار مقعده شاذاً ومنفرداً عن الآخرين .. توجهت كل الأنظار نحوه ، طفح ابتسامة بريئة ، كي يتمكن من اعتلاء النظرات ،ويتغلب على نحافته .. يرمق الحدوة في أعينهم باستمتاع خفي .

بدخول العجوز . للمرة العاشرة . عليهم .. نسي الباب موارباً .. وزع الفناجين ، ولامست يده الإطار الفضي للحدوة عفوياً .. قامة المهندم كانت منتصبة أشعرته بمدى انحنائه ، فانسحب .

[6]

يُذكر أن فرارهم كان مشهوداً .. انشبكت كرافت المهندم في "رزة" الباب .. سقطت سيدة الجاكت تحت أقدام المتدافعين ، لم تتمكن من النهوض بمفردها ، ساعدتها إحداهن .

لهجت اللحية بالاستغفار .. غلف المكان ما يشبه الصراخ ،اللعب ،الفوضى ،ونظرات التشفي .. هرول العجوز باتجاه فناء المؤسسة ،فتوافدت من شقوق المكاتب وفود ، من ورائها أذيال الوفود .. لذلك لم يتمكن مشرف اليوم من التفرقة بين اثنين من الفارين ، و الأطفال ، فضربهم بعصاه على مؤخراتهم .

أما السيدة المصبوغة ، لم تتمكن من حمل حقيبتها التي انفتحت فاضحة ، عدداً لا يحصى من أدواتها الخاصة ، فسرقنها ، وهن يربتن على ظهرها ويحاولن امتصاص نظرات الذعر . كانت تنظر وراءها للفأر الضخم .. تمسك ساقها المقروضة متلفتة على حجرة الاجتماع . وسمعن طقطقة أضراسها ، فابتسمن . خفية . اغتباطاً ورضا.

[7]

لم يفطن الفأر لانغلاق الباب ، إلا بانسحاب ضوء النهار . وحين غلف الظلام الحجرة وحطَّ طبقات السواد أمام عينيه ،

قال: وحدي .. أتحسس الطريق .

خبط الباب المغلق ثانية.. وسابعة عشر ؛ دار حول النافذة ، وحول المقاعد المبعثرة ، وحول نفسه ...... بلاط بارد .. دواليب صاج .. مقاعد فقدت سخونة أصحابها . همَّ بمحاولة جديدة .. داعبته ابتسامات صغيرة .. مؤكد أنهم ...... ولم يكمل . صاحبته بحيرة الحزن ودفعته إلى محيط الحيرة . هذا الصباح لم يكترث به العامل (يا له من أريب !!) يمعن في انحنائه دون فائدة .

زحفت البرودة إلى أطرافه .. فر نحو حافة المنضدة .. توقف قليلاً ، ريثما يشهق بعمق . سمع أصوات صغاره في الفناء .

لا أحد .

قرض بتمهل بضعة أوراق ، بيد أنه انزلق إلى الأصباغ المنسكبة ...

همهمات واهنة ندَّت عنهم لم يسمعها في الخارج الصغار .

تحسست رأسه حدوة الحصان المدورة كأن برودة المكان احتوتها .. قال لنفسه ، أقتل بها الوقت، وأخذ في اللعب .. مرق برأسه خلالها ، وأعاد .. ثم ابتسم .. كان جسده الممتلئ يواصل عبور دائرة فضية، معتاداً على برودتها ، مرة بعد مرة .. وهمس : رياضة .

بعد سبع وخمسين مرة ومائة ، كان جسده يمرق بخفة الثعبان .. تصاحبه أسود السيرك في العبور ، وتخايله حلقات النار وتصفيق الحضور .

لما تذكر أنه متعب ، بزغت ومضات خضراء من أطياف طفولته ، معها عصا تتلوى في أيادي مدرسيه ، غفا قليلاً محتضناً نزق صغاره ..كانت حدوة الحصان تسقط بثقلها الخرافي على ذيله الدقيق ،
وتقطعه .

من أجل صبارة صغيرة

لو كان لجدي أن يرى ..

كيف تقذف السماء بالموت ،

حين تولَّد الحزن فى قلبى ، كفرخ حمام لا يقوى على التقاط الحبات بمفرده ، لم يطعمني أبى في فمي .. تجلسني يا جدي على حجرك ، وتمد يدك فى جيب سيالتك ، فتطلع لى بالحلوى السمسمية التى أحبها، و لما تراني أتكلم عن العيال وآبائهم تأخذنى فى حضنك ، وتحكى ..

(الأرض حضن الفقراء ، أبناء الشمس .
أبداً . لا تتشرب دماءهم ،
لا تستحل عظامهم .. فقط تصنع منها
مراكب للشمس !!)

بعد وقف إطلاق النار . لم تكتف بخبره . مؤكد أنه لم يكن مجرد كلمة تقذف بها شفاه متعجلة ، فى حزن حقيقى .. ساعتها وقف أمام ناظريك بطوله الفارع ، وقبَّل يدك ، فدارت بك الدنيا ولم تقعد .. دققت كل

الأبواب وحاولت اختراق كل المنافذ . رجل لم توهن الفجيعة من انتصاب عوده .

ذلك الصباح حضرت إليك ، متوقفا أمام نوبات سعالك ورعدة جسدك الواهن ، كنت ممددا على السرير فوقك بطاطين عديدة ولم تزل بك رعشة عصفور جز رأسه السكين .

راقبت دمعتين تتأرجحان بين جفنيك .

تقبض على يدى" مراكب الشمس تاديني : يا سعيد ، امتزجت فى الظلمة ملامحى بملامح البعيدين ، القريبين الآن منك . ولم أرغب أن أقول لك : أنا صابر يا جدى ، بقلبى شمعة مطفأة .. ماذا أقدم لك . ترسل فى طلبى ، تتعلق بكتفى فجأة وتنهض واقفا . مازالت بجسدك عزيمة الرجال . نذهب معا إلى الصبَّارة .. تأخذ منها "خِلفة" صغيرة ..

. على مهلك .

= سأذهب .

لم يتوقف السعال حتى جحظت عيناه ، ثمة أمر مغلف بالرجاء .. وأَكمل

= جاءنى فى الفجر .

أنحنى برقبتى إليه لأستشف صوته المتقطع .

= طيور النورس .. حلقت فوقنا .. مركب الشمس كان فى الانتظار .

تأملته ولم أعلق .

* * *

على مضض كأنى متكئ على جمر . عصاى أسفل ذقنى تغوص فى رمال الخيمة .. أتملاهم بنظرات أسد جريح هدّه عناء البحث ، ولم تفت فى عظامه برودة الرياح أواخر يناير . عكازى وقف النار وفصل القوات ..

. عمن تسأل ؟

سمار وجهى وجلبابى المغبر يتراجع بأوامرهم وحزمهم للوراء .. أذكر لهم رقم حديدته الزنكية ، وفرقته وسريته المشاة الميكانيكى الملحقة بالمدرعات ، ومكان استشهاده .كما ذكروه . وحصار كبريت الذى انفض من أيام .

يتكرر السؤال وإجابتى كل مرة تنطلق بإصرار رجل يود لمس الحقيقة بيده .

= أنتم رفاقه ؟

يرقون لحإلى وتنفتح المعابر .

فى خيمة القائد كاد الشاى يكوى حلقى ، متعجلا التحرك .

كانوا ثلاثة .. أمارات الحزن تسحب وجوههم عنى ، غير أن شمسا تتخلل بدفئها قماش الخيمة . اقترب أحدهم بمقعده الخشبى ، حدثنى عن ابتسامة ولدى التى لم تفارقه ، وأقسم بالرمل الذى أرواحنا أرخص

من ذراته .. أن كل واحد منا قبض على أول حفنة نزلت عليها قدماه .. رأيته يمد يده فى الجيب (الكاكى) ويخرج كيسا صغيرا ، تلمع بداخله حبات صفراء بلون الذهب .

اصطحبنى بعدما أسر فى أذن قائده وسرنا .

كان يماثل سعيد طولا . منذ دخلت عليهم وتعرفوا بى وحزنه البادى يتحوطنى . عند الحاجز المائى تلفت وراءه كمن تذكر شيئا ، طاف بنظره عند مطلع الكوبرى .

. رويدك يا أبى .

لم أنتبه فى البدء حيث كنت موغلا فى جلال المكان .

قال : هنا .

= لكنه عبر القناة .

.كنا معا .

ألمّ به حزن عميق حتى بانت التماعة فى عينيه . هز بعدها رأسه ، طارحا للوراء الذكرى ، وندت عنه ابتسامة صافية .

* * *

.......هنا أحسسنا بأول ارتجافة للجسد .

وأشرت بيدى قرب الجسر .. على امتداد كان الكوبرى يركب القناة فى تحد ، ثابتا ، يخترق فتحة الساتر الرملى على الضفة الشرقية .

اقتربت ثلاث طائرات فانتوم للعدو ، مرقت فى البدء
فوق الكوبرى المحتشد بالعربات والجنود . كانت
قريبة منا ساعتها سألنى سعيد : خائف ؟ ..

كنت منشغلا بأمر الأطقم واستعدادنا لأخذ دورنا فى العبور . تممت على الذخيرة ثم رفعناها داخل العربات ، والمياه والوقود وسلامة الأقنعة الواقية ونظارات الميدان والتعقيم الجيد للملابس ضد النابالم وسلامة أجهزة التوجيه .. قبل انطلاقنا إلى المركبات البرمائية .

شرد سعيد لحظات ، فى الوقت الذى طاش صاروخ م . ط ، وبعد ثوان معدودة هللنا وكبرنا إثر انفجار الطائرة الأولى بصاروخ ثان .. بعودة أزيز الطائرتين ظننتُ أنهما سيلامسان رؤوسنا .

. الحرب مطحنة كبيرة يا أبى .

أمّن والد سعيد على كلامى بقوله : شئ يبقى يا بنى .. تلك الشواهد الصغيرة التى تضيئها الشمس .. وندوس بأقدامنا حولها فى أمان .. نتمكن عند ذلك أن نغرس صبارة وحيدة ونمضى .

. أتعلم ؟ .. عندما هممنا بالتحرك ...

شرد سعيد على غير عادته ممعنا النظر فى السماء كالذى يستوضح شيئا حتى أننى لكزته فى جنبه ليستعد ، ساعتها رأيت ابتسامة لن أنساها . خبط كتفى بسعادة وانتشاء قائلا : إنه ولد .. واسمه صابر . ولسوف يصبر برغم اللهيب .

ضحك أبوه متذكرا رؤيا ولده وقال : أسميناه صابر .. صابر سعيد .
وصلنا إلى كبريت ، رائحة البارود لم تزل عالقة بالهواء . الدبابات المحطمة تبعثرت فوق الرمال . فى صباح 9 أكتوبر زحفنا إلى هنا بأوامر للاستيلاء على نقطة كبريت شرق وهى من النقاط الحصينة للعدو . تعرضنا فى الطريق لغاراته الجوية قبل الوصول بـ 3 كيلو جنوب النقطة .. ظهرت دبابات العدو فى محاولة لإعاقة تقدمنا . وصدرت الأوامر لمجموعتنا بالتعامل معها .. كانت ثلاث دبابات ومجنزرة . اتخذنا مكانا مناسبا وراء إحدى التباب القريبة فى انتظار وصولهم لمدى المرمى المؤثر . أعطيت أوامرى كحكمدار للطاقم بإشارة كالبرق لجهاز الإطلاق ، فأصيبت الدبابة الأولى والمجنزرة وأصبت الثالثة . لكن الدبابة الثانية برغم أننا شللنا حركتها فقد احتمت بالمجنزرة وصبت علينا نيرانها .
وزعت الفصيلة إلى مجموعتين للالتفاف . كان سعيد أسرعهم . من هواياته الأثيرة أن يرفّع الأسرى ويسوقهم أمامه، اختبأ لهم مرة أيام الاستنزاف وبعد تنفيذ العملية تسلل من ورائهم وصوب مدفعه فى ظهورهم فاستسلموا . قمنا بالتمويه والتسلل من وراء التباب .. آخر صاروخ لدينا والدبابة لا نستبين منها سوى ماسورتها .
غطونى حتى أخذت موقعا قريبا ودققت محددا الهدف.. أصبت منها الجنزير.. انتفض من بداخلها.. كانوا صيدا ثمينا لسعيد الذى انشقت

الأرض عنه فجأة .. وقتها برزت رأس أحدهم ، مؤكد أنه تسلل من وراء الدبابة .. ربما يكون سعيد أحس به؛ ربما ليرى للحظة واحدة وجه قاتله لأن رأسه ظهرت لحظة واختفت .. غطيت ظهر سعيد بوابل من النيران .. فى تلك المرة ارتفعت الخوذة قليلا ، بانت الرأس تماما فاصطدته . عندما وصلت كان سعيد مطروحا على وجهه بنفس الابتسامة الهائئة ، متوحدا برمل سيناء كالذى يهم بقول شئ ولم يتمكن ، فترك لى هذه النظرة الأخيرة . لتظل محفورة بالقلب

* * *

(سعيد)

" على وقع حركته المخاتلة استدرت ..
أحسست بعينيه المذعورتين ..
كان مصوبا تجاهى بدقة ..
ترافقت التفاتتى برصاصاته .. "

* * *

كبريت .. رمال ، وتلال متباعدة تتخللها دبابات خربة ، بعثرتها صواريخك يا سعيد .. عربات ترزح متفسخة بين الأحجار والرمل .. من ورائنا رمال متعالية . كانت منذ بضعة أشهر ساترهم المزعوم .

تحركات حثيثة لجنود بعيدين .. هنا تختلط الرؤى بالمشاهد ، أمسح عينى من ذرات ناعمة تزفها الرياح . هو أقصر قليلا من سعيد .. أكثر هدوءا ، بقلبه مغارة ، تنتظر من يدق بابها . قال إبراهيم متأملا : أرواحهم ترف حوالينا .. هنا . وأشار لموطئ قدمه . وجدناه مبتسما مطروحا على وجهه؛ لم أتمكن حتى الآن من تفسير تلك الابتسامة أهى الرضا، أم السخرية من قاتله؟

الرمل يفتح دفاتره ، يعيد للعظام صلابتها ، ينفخ فيها الروح ، رأيت ابتسامتك وأنت صغير .. كنت تأتى بكل ما يصعب على من فى مثل عمرك إتيانه .. قلبك حديد يا ولدى كأبيك .. حكيت لنا تحت لمبة الجاز أيام الاستنزاف ، كيف تأخرت عن المجموعة وتسللت من وراء مجنزرة العدو التى دمرتموها .. وعدت بالأسرى أمامك .. كيف إذن سقطت .. أأودت بك نظرات الثناء ..

أتعثر الآن بين الرمل والحجارة ، يسندنى إبراهيم ، فيستقيم عودى .. قرأت فاتحة الكتاب .

امتدت يدى داخل كيس من القماش .. حاول إبراهيم أن يحمله عنى ، أخرجت صبارة صغيرة .. توقفت عيناى على حروف اسمه المسبوقة بـ (الشهيد) هنا مقامك يا حبيبى .. متى يكون الموعد ونتلاقى .

ربت إبراهيم على كتفى وحاول غرس الصبارة . هززت رأسى متشبثا بها . أخذت أحفر الرمل وأعد بدربة الفلاح مقامها الأثير .

*   *   *

تراءت الأسلاك والصبار والشواهد يا كبريت . كبرت صباراتك يا جد : صارت صبارات كثيرة . تلك ظهيرة تفجر بمعولها تفاصيل ومشاهد مترامية ، ملامح رجال توحدوا بقوائم الخشب ، يسجلون أسماءهم على لافتات تحاول الريح معها . وحتى الآن لم يغادرنى إحساس ما بالكدر . ربما خطوط الظل المترامية من الصبارات شغلتنى . كنت أشعر بعطش شديد بعدما هاجمتنى فكرة أن أرويها ماء مالحا من القناة . رغم ما يكلفنى ذلك من قطع مسافة ليس قصيرة ، إلا أن العطش ألم بى أمام انتصاب الصبارة فى تحد .. تخيلتها فى كيس من القماش بين يدى جدى " أنا شديد .. أسافر وحدى " ووحدك محمولا على كتفى منذ بضعة أيام ووحدى الآن وسط صبارات تمنيت أن تعرفنى .

اعتمر المكان ، تكاثرت القرى السياحية على الضفة الشرقية للقناة تجذب خطوات السائرين نحوها من كل فج كانوا يهبطون سلم الأتوبيس السياحى منتشرين .. يدبون بخطوهم تجاه شرم الشيخ .. امتلأت الرمال حياة ، فوق الدماء والصبار .. فوقك يا أبى .تراك الآن سعيدا يا سعيد ؟

أحضرت ماء من بيت بطابقين ، بعدما ارتويت وضعت فى يدى الصبى ورقة مالية ، فأحضر لى صفيحة فارغة تفح برائحة السمن الصناعى ؛ سألنى : أمعك أحد هناك ؟

كان العيال يلعبون فى تحد واضح للظهيرة فتابعت بنظراتى تناقل القرى بين أرجلهم وسرت .

فى الطريق استوقفنى شاب قمحى الملامح ،كان يبتسم ويشير إلى الصفيحة بيدى أرفعها إليه ، يحملها عنى ويرتوى . أراقب انسراب الماء على ملابسى ،كانت الصفيحة مثقوبة ولم أهتم، يبادرنى .. إلى أين يابن العم ؟

= مقابر الشهداء .

أخذ الطريق بجوارى ماشيا ، من آن لآخر كان يشير بيده لحطام معدات متناثرة ثم طلل لعربة تغوص فى الرمال .كان نحيلا وأطول منى بقليل ، بعينيه ألفة ما . فكرت أن أسحب منه طرفا للكلام بيد أنه كان يوغل فى تفاصيل المكان ، يهز رأسه من آن لآخر .. من ملّكك تلك الرمال والحطام والنظرة الأليفة أيها الشاب القمحى ؟ . من منحك القدرة على تقديس الصمت بإشارة دقيقة من يدك تفك أسرار الرمال ، تطلق المردة من قماقمهم وتبتسم ..

. من لك فى المقابر ؟

= أبى .

كان القروى القادم من دلتاه مزدحما بالصبار والذكرى ، ينادينى من جب عميق لأفيق على جلال الشواهد وعلى صوت جدى " أنا شديد "

.

التفت على ما يشبه سؤالا قادما من الشاب الذى خدش مسافة الصمت بينى وبينك .

. أهو شاهدك ؟

= نعم .

. هذا ؟

كان يشير إلى نفس الحروف واللافتة المائلة . الصفيحة التى قلبتها . عند الصبارة . ندت عنها آخر قطرات دافئة ، تتسرب بحضن الرمال ، لم تزل بيدى . أكملت مؤكدا : نعم .. نعم هذا أبى .. سعيد النبوى .

يقترب منى حتى تتلاقى عينى بعمق عينيه السوداوين : إذن أنت صابر ؟ .

تعقد الدهشة ملامحى ، لم أخبره عنى بشئ لأنه لم ينطق طوال الطريق .. فقط كان يراقب انسراب الماء من ورائنا راسما خطا دقيقا سرعان ما يطويه عطش الرمال .

. وهذا الشاهد ؟

= شاهد أبى .

لم تفارقه ابتسامته حتى استدار عنى عائدا .. وهو يقول : كيف ؟؟ ... إنه شاهدى أنا .

الديك الشركسى

كعصفور صغير كانت كفى تهبط وسط يدها السمينة ونصعد السلم الخشبى؛
ترتكن على ساقيها ، ويهبط جرمها الكبير حتى تجلس القرفصاء ، ثم تمد يدها حيث تبيض الدجاجتان ، وعندما نعود ببيضتين ، تبتسم قائلة : الحمد لله
وتحشو لنا أمى رغيفين ساخنين بالبيض المقلى
وعندما أعود من المدرسة ويدى فى يد أخى الأصغر الذى تعلم نطق الكلام منذ عامين تقريبا ، وأصر أن تكون له مثلى شنطة وكراسة وقلم ، ذهبت إلى الحضانة وسجلت اسمه ؛ وكنت آخذه كل يوم فى يدى .. وأنتظر الأبلة المبتسمة بلا داعى . فى العودة . أن تأتى به من على الأرجوحة .
كنت أقول هذا الديك الأحمر ذو العرنون لى ، وكان أخى يمسك بديك ذا رقبة صلعاء : "وهذا لى" أطلق عليه أخى أبو " رقبان" ..

ننتظر بفارغ الصبر أن يكبرا مثلنا ونجرى وراءاهما على السطح ، فتقول: "بشويش يا أولاد .. الفرخ يطير" .
كانت تخاف عين الحسود .. وتلاحقنا بالرقية كل يوم .
آ....هـ يا أمى كنتِ ممتلئة كدجاجة مكتنزة
كيف هزل جسدك .. وأصابك داء العظام؟؟ !!
صرت تخافين طلوع السلم الخشبى .
حوَّم الشرود على سنك الضاحك .
منذ عشر سنين تقريبا تاه الديك "أبو رقبان" ، نزلتِ تبحثين عنه .. ولم يعد .
يقول الجيران : ديك بهذه الأوصاف .. وهذا الجمال لم يأت عندنا ..
ويهون عليك البعض: حتما سيعود .
وتغمز إحداهن : ربما لاف على واحدة ونط من فوق الأسطح ذاهبا لها ..
تبكى أمى نادبة : يا ناس إنه ديك صغير .. برقبة صلعاء .. كان يختال فى مشيته كطاووس ؛
يوم عدتُ بدونه لطمتْ خديها وظلتْ طرحتها السوداء ملتحفة برأسها .. ولما جفت دموع أمى حلَّ الشرود ، كمن كانت تنظر فى اللاشيئ .. أو تقرأ قدرها فى صفحة الغيب .
أذهب للمدرسة وحيدا

وأعود ..

أحيانا تندرج قدمى باتجاه السلم ، فتصرخ كأن عقربا لدغها : لا .. والنبى يا بنى

من أجل قفص من الموز

كان يظن بأن رأى ـ صديقه ـ سوف يغير وجه الحياة .

كان يظن ذلك حتى وقت قريب ، إلى أن اكتشف بأن القردة وحدها تلتقط أصابع الموز تباعا دون جهد ،

بل ينالون التصفيق ، حين يتقافزون بين الأفرع .

لذلك رمى أكوام القمامة فى الشارع بنظرة بائسة، ومضى ذاهبا إلى صديقه الألمعى الذى نجا من الموت بأعجوبة، إثر سقوط أقفاص الموز فى الطريق العام ـ فجأة ـ أمام العربة السرفيس التى كان يستقلها صباحا ؛ إلى هذا الحد ما كان يثق بأرائه .

وقرأ عليه ما جادت به الذاكرة فى وصف القردة والدجالين ، وأرباب الحرف .

فقال له الألمعى وكان يكبره بعشرين عاما :يا ولدى .. يا ولدى .. أنت لا تنفع لكتابة القصة .

إكتب نقدا ..

أخذ يتتبع التفاصيل الواهية ،

ومسَّد فى الليل سيفه ، وانبرى ينتقد ؛

قال سوف أبدأ بالأصدقاء، ربما رحابة صدورهم تحتمل مهاتراتى .

كان يحاول الوصول لشئ خفى مرتكن فى ركن مظلم ، شئ لا يعلم كنهه ، غير أنه كان يرى الموز والقردة ولاعبى السيرك والحواة ، يتشممون كل يوم الشوارع كالكلاب الضالة ،باحثين عن فريسة ؛ تحاوطه فى الليل ملامحا ، ورؤى غائمة ، تقترب من عالمه وتهزه هزا ، فينهض لكى يلاحقها بقلمه ، بيد أنها كانت تستحيل سرابا ، بمجرد اقتراب يده من زر المصباح ، كانت تنفلت منه الصور وتميع الملامح ، وفى كل مرة يحاول إرضاء الألمعى الذى صارحه بهذه الفجاجة التى لاقت إلى حد ما هوى . مؤقتا . فى قلبه ، ربما لأنه أحس باقترابه من مزارع الموز ، لكنه ....

(ليس لكل تلك التفاصيل علاقة بموضوع القصة . الآن .كان يقول ذلك لنفسه ؛)

.... هكذا تنفتح الدروب أمامه على بعضها ، وتبتلعه كل ليلة تلك المدينة الضباب ،

في المرة الأخيرة ، وجد أنه ينتقد نفسه ، بعدما خاصمه الأصدقاء

،

أحس بوحشة ، وبرودة تحاصره في الليل ، كان يختنق وهو يحاول الوصول للبرواز المذهب الذى رسمه له الألمعى ، ظل يحاول .. إرضاءه .

ويحاول ..

ولم تخاصمه الرؤى ، ولم تفارقه الأشباح في ليل غرفته ،فكان يلاحقها في الظلام ، بلا مصباح

يقول : ربما في المرة القادمة أدخل البرواز

وفي المرة الواحدة بعد الألف تهشم البرواز الصدئ ، وتهاوت شظاياه في أرجاء الغرفة ووجد ملامح شائهة لواحد لم يعرفه .

كأنه هناك في الركن القصى من العالم يرقب القردة وهى تلتقط أصابع الموز ،

بحزن بالغ ،

بلا إرادة منه يصفق لمهارتها في التقافز..

ويبكى في الليل إنسانا غريبا ...

حصـــــان

أعددته لرحلة طويلة .

في البداية زمجر ورفسني .

انطبعت سعادة خفية في قلبي إثر رفسه الطفولي ،هذا الصباح جاءني صديقي بصوره العديدة ، التي التقطها لنا . بإتقان . أثناء جولاتنا المتفرقة

,

قال : لماذا تطلق عليه كل الأسماء ؟!!

انسحبت في هدوء يشي بالفرح . ناداني . إلتفت ..كانت نظراته متسائلة وجوابي غير حاضر سرت مختالا ، غير عابئ بالحصى وفتحات البالوعات ، وناتج الهدم ، طائرا كنت أسير ؛ في جلسة الأصحاب قال اللوذعي : أخيرا صار لك حصان جميل

ضحكت .. وركزت عيني في عينيه .. فانسحب

حاولوا مداعبته فى نهاية الشوط .ركلهم جميعا

حاول أحدهم إمساك مقوده ،إبعاده عن الحلبة لكنه ركل الكراسى التى نجلس عليها ، وحمحم ثم نظر لى بحنان .فأخذته فى حضنى .واحتوينا المكان

فى المساء وأنا فى مدينتى سائر وحدى ،

وجدته بجوارى .

يهشنى بذيله الطويل ، يدور حوإلى.. أزال بفرحه الحيوانى وحدتى ..فغنيت .

" طال المشوار.. والتعب باقى "

كان مقوده فى يدى ..مسحت ظهره بباطن كفى .

كان يتطلع محملقا فى البعيد .

قلت : أعتليه . ونهضت .لم يكن .

كأنه قبض ريح واختفى .

طـــــائــر

علىَّ أن أنتظر ، هناك على الشاطئ الآخر ، حيث أرقد بعيدا منتظرا نهايتى. علىَّ أن أعدو مسافات طويلة لأرى الطائر المحتضر اثر رصاصة غادرة ، وأن أبكيه طويلا ، وأسرح فى تفسير العلاقة بين الرصاصة البيعدة المنتظرة ، و قدمىَّ الطائرة العالقة .

رما أدبج قصيدة عمودية فى رثاء الطائر الغريب ، وأمد حروف الروى فى تأنٍ وحزن .

ربما تصفق الأيدى وتدمع العيون .

لكن أعماقى ستعتصر حزنا ، لكتابتى قصيدة تقليدية لا ترقى لطائر وحيد وميتة غامضة

ربما أختنق فى نهاية اليوم ،

حين أصير وحدى وصورة الطائر لا تفارقنى .

وتصفيق الجمهور على قصيدة كاذبة

أشياء أخرى

أنت منذور للحزن ولأشياء أخرى ، أن تسير وسط شوارع المدينة بلا هدف ، تنفث دخان سجائرك فى الهواء ، حتى تنفد آخر طراوة بصدرك .

تحاول استحضار وجهها .

تحادثه

تقيم علاقة ما ، لم تكن

موات يحيط بك من كل جانب ، ثمة افتقاد ينبع وسط الأشياء

حين يعود أبوها حاملا ماكيتات كثيرة لعشكما معا .

صور مستوحاة من خيالات تهوم بعيدا ، ثم تسترخى بعيدا ، وتدخن البايب .

واضح أنك لم تفقه بعد كيفية بناء الأعشاش

تريدها وحدها

وحدها لك ، سواء تواجد العش ، أو بدون عش ، أو فى الشارع
وحدها حاضرة وسط الغياب الطاغى
أنت غير منتبه لأشكال جمالية فى تكوين الأعشاش .
غير منتبه لوجود المارة من حولك
غير منتبه الا للهواء البارد الذى بدأ يتسلل تحت قميصك .
ويشعرك ببرودة شديدة

نهوض

كان يمكننا أن نترك لأجسادنا فى الليل حرية الملامسة ،
ننظر فى أعين بعضنا باحثين عن الرغبة التى طمرتها الخلافات الزوجية بالأمس .
ندفع ارتخاءات أجزائنا السفلية بعيدا .
وننزع غلالة كثيفة حطت على القلب
كان يمكننا أن نفعل ذلك مثل كل مرة .
ثمة دموع بين ضلوعى تنام تحت متاعبى القديمة ، لابد أن انسانا ما ينهض من رقدته بداخلى ، ويدفعنى للخروج ، ومغادرة أنفاس النوم المتلاحقة ،
لهواء الصباح الباكر المنعش هممت بالنهوض .
بانفتاح باب الشقة ...

دخلتنى قشعريرة برد مفاجئة

عدت سريعا ،

احتميت بالغطاء

وصرت ثقيلا .. ثقيلا

حمــار

لى صاحب ،

عندما تحاصره المتناقضات ، كان يضحك ، مؤكدا بمرارة :

" كل الدروب تؤدى إلى روما "

وكنت أهز رأسى ، وأنسحب .

تلك الليلة عند عودتى ،

أحسست بأن أحدا ما يتعقبنى .

لدى هواجس لا تحصى من هذا القبيل .

المهم أننى أحسست بوقع خطواته ، من ورائى ، يقترب ، كأنه يحاول اللحاق بى .

عندما حاذانى تقريبا .

قال: أنـت

لم أتوقف ، مستفسرا

بل تساءلت : أتقصدنى أنا ؟؟؟؟!!!

أجاب بلامبالاة : ليس غيرنا فى الشارع ، كانت بقايا ابتسامة باهتة لم تزل عالقة بصدغيه

: ربما

تابعت بنفاد صبر : هات ما عندك .

قال : أنت متعبٌ من المسير .. وأنا تعبتُ من الرمح وراءك ؛

لم أفهم

أكمل

: ألم يئن بعد أن تريحنى وأريحك ؟؟

:أنا لا أعرفك يا سيدى

: لكنى أعرفك منذ ولادتك

كان يناهزنى فى العمر ...

وقال : لن تصدقنى ،

كان الطريق خاليا من العابرين والليل تجاوز منتصفه ، كل الصيدليات أغلقت أبوابها ، هربا من برودة الشتاء

قلت : أنا متعجل .. من فضلك دعنى وشأنى

لم يهتم ، ثم أخرج من جيبه شهادة ميلادى وصورى القديمة ، وأنا بكراريس الدرس .. وأنا أقرأ ... وأنا أتحدث مع صاحب ثم .....

أضاف : طوال عمرك متعجل .. ما رأيك نأخذ كوبا من الشاى ؟؟

كانت ابنتى تنزف من منخاريها بعد إجراء عملية اللحمية واللوزتين ، بالمستشفى العام .

صيدلية واحدة ، أرشدنى اليها الطبيب .. ونوع وحيد من الدواء سيوقف النزيف

أوضحت له أن ابنتى مريضة..

وحزن كالأنفلونزا لا يفارقنى .

ضحك ؛

ولم يهتم ، ثم أوسع ما بين فخذيه ، رافعا ساقا كما كلب يبول .مبتسما فى بلاهة .. تلقفنى الألم ملقيا بى فى طريقه ، بعدما سربلنى بشباكه ، وألقانى فى بحر ما له آخر . تركنى وحيدا فى طريق خالٍ لهذا المعتوه

تراءت لى السيدات على الجسر بجلابيب سود . على أياديهن بنت تشير بيدها : بابا .. بابا .

انحنيت كى أتناول علبة الدواء التى غافلتنى وسقطت منى على الأرض . كنت أبحث عن إجابة ، ربما تفسر لى سر توعك العالم

بداء عسر الهضم .

أحسستُ . فى نفس الآن . وأنا ألتقط العلبة أن كائنا ثقيلا قد حط على ظهرى .

وألم بفخذيه على جنباتى .

اهتززت .

دون جدوى.

ظـلال

قال : سلام

قلت :سلام

وتوارى فى الخفاء عنى ، حتى تناسيت وجوده

لأكتشف فى المساء اختفاء ماعز من حظيرتى

ومرَّ علىَّ فى اليوم الثانى ، رافعا يده بالسلام

رددت بحذر : س.. لا ..م

عاد راكبا متوسكل صينى ، من ذات المتوسكلات التى يؤجرها ابن العلاف لغلمان القرية ؛

نعهد أباه مرابعا عند شيخ الخفراء ،

تساءل الجميع عداى ، عن سر تحسن الأحوال ،

أعرف أين راحت ماعزى

واختفى ابنى الذى يحبو من أمام الدار ، صرخت ولم يصدقنى شيخ الخفراء

فتشتْ القرية معى كل الأماكن ، وكان معنا

يا الله

كيف أحتمل رؤيته وهو يقول : ســـلام

وراود امرأتى عند الجسر ،

فهرعت وبيدى المنجل .

كنت ناويا حش رقبته

الا أننى عندما وصلت اليه (كان وسط البحر يستحم) ووجدت حلة شيخ الخفراء ، والعمدة وشيخ البلد ، بجوار هدومه ،تعجبت

كل هذه الملابس لواحد فقط .. يستحم

ناديت بكل قوتى : اطلع يا ابن الكلب

كان يصعد سلالم الجسر و فى صفرة المغيب تتابع ظلال مأمور المركز ، وطبيب الوحدة وعسكرى الجمعية .. ظلال من وراء ظلال

حتى لم أتبين ملامحه بالضبط

ولم يسمع أحد . عند المغيب . بصراخى

العصافير

تباحثت العصافير فى الأمر ،
احتشدت جموعا ، ثم أقلعت
أحاطت بالشجرة .. حاصرتها .
فجأة بزغت البنادق المتربصة ... تساقطت صرعى
قالت المرأة العجوز : لن أربى العصافير ما دامت ضعافا
رأت برؤوسها المتلصصة ، حبات القمح تتعفن ، ورؤوس البنادق تبزغ .
ارتعدت ، أحكمت الأوكار على أنفسها
تصلب القش .
صارت الأوكار أقفاصا

مطاردة

رأيته

فى عينيه يلمع شرر مخيف

وتشابك الليل بذراعيه ، امتدا ..امتدا

ضربنى

كانت أحشاء الليل تموج بحركة متباطئة

آلمتنى الصفعة ..

عدوت خلفه .. أخذ يجرى وأنا خلفه

تفرعت الشوارع على حارات ضيقة ، ثم أزقة

كانت أقدامنا تلامس الدروب كالبرق

لملم هو من المنحنيات المتعرجة أذرعا أخرى ، ورؤوسا ، وأقداما

ثم تباطأ .. توقف .. انتظرنى

تولدت من تلافيف الليل نماذج مخيفة ، على شاكلته

توحد بهم

سمعت نعيب الغربان يتقارب

صرخت فيه
لكن شلالات من دماء ، كانت تلاطمنى
والأصوات تتباعد
و بقاياى كانت تتساند

خيــانة

" أنا لم أخنك لكننى "
هكذا كتبت لزوجها فى الخارج
وحين جمعها الفراش مع عشيقها الوحيد تأفف منها قائلا : أنا لـم أغرك لكننى ..
وفى الصباح أودعت ولدها الوحيد مدرسة داخلية
سألها : لم ؟؟!!!
أجابت : ليس بيدى .. لكننى

الموت وقوفا

من الواضح أن المياه العفنة قد ازدادت بحكم الدلق المستمر ..

ومن الواضح أيضا أن الصديق اللوذعى عندما فاض ماء غضبه ،كشر عن أنيابه ومزق لحم الأيام الحلوة . وبناء عليه فقد كانت البراعم الشابة من جيل العربان الصغيرة ستنمو في مواجهة ريح مدمرة فى المستقبل (اذا ضمنت لهم الأحداث حق البقاء).فالحقيقى وجوب بترهم منذ الآن ، حتى لا يختنقوا في جو الغرفة العفن ، ويمنعوا بتزاحمهم . فى نفس المكان . علينا فرصة الهرب .

رغم اعتقادى الأحمق أننا سنموت وقوفاً مكاننا دونما محاولة للفرار .

فى هذا الوقت المتأخر من العمر يأتى ضجيج كاذب لصاجات راقصة تعزف على أوتار أيامنا الفائتة ، فلا توقظ فينا غير الموات .

الفرصة الوحيدة للصديق الوحيد والذى يلوح بالمجيء ، أن يبقى فى مكانه مكتفيا بمتعة المشاهدة على شاشات التلفاز ، لبعض مايدور عن طفح المياه التى كانت راكدة .

الملاحظ عن قرب سيجد أن الدلق مازال مستمرا والأنوف التى ما زالت بها قدرة التمييز قد أعيتها الرائحة ، لن يستديروا للخلف ، ولن يولوا الأدبار أمام (المستمر) فى الدلق لسوف يقبضون على رقبته . إذا تمكنوا من رؤيته ..لأنه مائع الملامح ، يحمل فى جيب سترته أقنعة من الزمن الماضى والقادم .

ينشبون أظافرهم الصدئة فى عروقه الدموية الغليظة ، هم يعلمون من باب الحكمة أن أظافرهم تتساقط بحكم الصدأ المتشظى فيها ، لكنهم يعتقدون بمكر الفلاحين أن تراكم الصدأ سيحدث تسمما فى عروقه المحتقنة بالدماء .

وتتساقط الأقنعة قناعا قناعا .

وإن جو الغرفة سيزداد فسادا بحكم انبعاث الرائحة ، ربما يؤدى هذا إلى رؤية ضبابية . تجد أن البعض يعمل بأظافره الصدئة فى عروق البعض ظنا منه أن أحد الأقنعة لم يسقط بعد .لكن المؤكد . وإن كان التأكيد هنا من باب الهذر السخيف . أنه سيزداد عدد القتلى وتتكدس الغرفة الفسيحة، مما يتيح لها . أقصد لرائحتها . زيادة العفن ؛ وبناء على كل ما سبق يستمر دلق الجثث المتقيحة ، وترتفع المياه حتى الأذقان ولن يتاح لنا . عندئذ رؤية المكان الذى سنتكوم فيه .

الرقيب

قال لى فى الصباح :كن حاذما مع الآخرين .
وقال أنت السبب وراء خلو البيت من الدفء ، وسقوط الأنظمة العربية ، مؤكد أنك مصاب بالفصام ، لو تمكنت من تسجيل ملفات العنف وعمليات الاختلاس فى المؤسسة ،شريطة ألا يعلم بالأمر أحد ، ثم تناوش المدير أن يتركك قليلا من الوقت كى تراوغ جيدا وقت اللزوم
وقال ياعزيزى : اعلم أن الحياة لا تمنح حلوها إلا للأشرار ؛
كان إلى حد بعيد يداعب طبقات الطموح، أو بالأحرى الرغبة الملحة فى التسلق كأنه ينادينى من أغوار سحيقة .
من الضرورى أن أشير إلى أهمية أن يكون الإنسان قادراً على التنفيذ، وأنا كنت من ذلك النوع الذى يتخذ القرارات فى المساء . تقريبا . خلال الوقت الذى يحاول فيه استمالة ناموس النوم ، خاصة حين يحاصرك

الناموس الحقيقى ..ويشاطرك الرقيب بشطحاته التى ما تلبس ،أن تداعبك مع هلول أول نسمات للصباح ، حين يطالعك من كل ناصية المدير رافعا إصبعه ،وأنت تهز رأسك .. تهز ، موافقا راضخا وهو لا يلوى على شيء .

لذلك فأنت مضطر أن تغرس عينيك جيدا فى النظام وأن تحتمل غبار الملفات وغبش الظلام وأنت تدون فى أوراقك السرية أول خطواته وهو يحبو أمامك ؛ لينام بجوارك على الفراش ، وقبل أن تغمض عينيك، ومع لدغات الناموس المتلاحقة انتبه جيدا ، واعتمد الخطط الجديدة ، وعندما يقول لك فى الصباح أنت وراء سقوط القتلى فى فلسطين والعراق والسودان وأفغانستان و ..... ، لا تندهش

لأنك تعلم ..ما يحيكونه لك فى الخفاء ،

وهم يعلمون أنك تعلم .

" وما حيلتك "

ولأنك هادنته كثيرا .

وتأخرت أكثر من اللازم .

ولأنك وراء كل ما سوف يقال ..فلا تبتئس ؛

وأحكم الجاكت حول جسدك ، والكوفية حول العنق .

وأبطئ من الخطو قليلا ولا تخف ، لن يتمكن المدير من تسجيلك ضمن المتأخرين

أعدك ..سوف يعلن أمام جمع المتذمرين أنه منحك إذنا .. يا أخى قلت لك لا تخف.

الموكب

السيد صاحب العزة .

قالوا انه أب لكل فرد

طلبت من أبى قميصه فأعطانى إياه

زجت المدينة بالأهالى ، فى الميادين وعلى الأرصفة وبالأعلام والاجازات.

قلت : هل سيكون ؟!!

مر الموكب من أمامنا .. كنت محفوفا بأهالى مدينتى .

قلت : لولم يسمع ما سأقول .. سأصرخ

هلَّ فى سيارته لوح بيده لنا .. انشرحت .. قلت : إنى جائع

كان يلوح .. قالوا فى صوت واحد : نحن جوعى

إنه يلوح ،
صرخت بكل عزمى : إنى ... إننا ....
بينما كان الموكب يسير .
وهو وسطهم .. يلوح .

شمس

سألتنى أمى .. وسألنى أخى الأصغر .. وأصدقائى .
ونحن نسير بجوار النهر ، لماذا تغرب الشمس . عن مدينتنا . منذ أعوام طويلة مبكرا ؟؟؟!!!!
فى فراشى ارتعدت من شدة البرد . وضعت كل الأغطية على جسدى ومازلت أرتعد .
سمعت أمى تشكو من الروماتيزم المزمن
وأبى يقول لها : فقدت الشمس حرارتها
تحملى .. هانت .. فات الكثير
رأيت العمارات عالية .. عالية .. عينى لا تطالها
عمنى ضباب كثيف
وتهت

الخـــــوف

الخـوف : لبـاس مطـاطى يهـبط عليـك . بـه . [*المظليون*]، الـذين يقتحمـون بملامحهـم الصـخرية جـدا ، وابتسـاماتهم الفجـة ؛ ينتهكـون فضاءك ، صحوك ، غرفة نومك ..

ربما تكون متعاونا فى البداية فتدعوهم إلى الشاى . بوصفهم ضيوفا ؛ وأنـت تعلـم أن [*المظليين*] ليسـوا . مجـرد . رجـال فـى السـلاح العسكرى

إنهـم فقـط . مجرد رمز أجوف . يحدد إقامتك .. فى هيكلٍ متداعٍ لإنسان وحيد فى الظلام .

هيكل تحاصره الهواجس والظنون ، التى تغتال على الرغم منك . أويقات صفوك ....

هـا أنـت تتطلـع إلـيهم وهـم يفكـون وصـلات مظلاتهـم ويطمئنـون إلـى تشغليها ، أثناء اقتحام خلوتك.

ما هذا الشيء الذى يغزو أوصالك .. ويفقدك التركيز ؟؟؟!!!!!!!!.

ليس بالطبع الخوف المتربص بك.

وليست المظلات الهابطة فى ليل بهيم وقاتل ،

ربما لأن رؤية *المظلات* كل صباح يعكر صفو خيالك ؛

ويترك لك نظرة ساخرة فى بريدك

لا تبتئس . يا أنا .

وتحصن بحصنك لا مفر

[حاصر حصارك

بالجنون .. وبالجنون

كل الذين تحبهم رحلوا

إما أن تكون

أو لا تكون]

أنت فى حاجة إلى صلابة فى العود

كى تقول بلا مواربة

[[لا تصدقوا أيها المظليون أننى نائم فى عشتى مع الدجاج]]

أو أننى ناظر . كعادتى إلى أسفل ،

ويداى مرفوعتان . فى الفضاء الغريب . بلا حجر

فقط ..

أنا أنفض عن قلبى البلادة ،

وأستفيق.....

ليلة باردة

ما كل هذا الفراغ

الذى يتحوطنى، ويدفع بى إلى أعماق سحيقة

كأننى بمحض مصادفة ما ، جئت إلى هذا العالم

أتذكر ، بيت شعر للمعرى

هذا جناه أبى علىَّ

وما جنيت على أحد

وقلت له : سلام يا صديقى

قال : مالك

قلت : حاسس ببرودة شديدة ، من هذا العالم ، كأن المدينة ، تتقاذفنى
رد عليَّ عبر الهاتف
وكان صوته بعيدا ، لكن به مسحة من دفء : الأوضة عندك تلج
قلت المدينة الآن ، وتلقى بى فى حوارٍ ضيقة ومسدودة ، المدينة يا عزيزى
قاطعنى مرسلا ضحكة أسيانة : مسدودة فى وشك .. فى إيه ؟
قلت : تمنحنا غربتها ، مع أننا نحاول جاهدين ..نيل رضاها
قال : أما أنا .. مازلت أحاول !
" ما بينى .. وبين الزقازيق .. ثأر قديم .. مثل الذى بينى وبين روحى الآن
ومحبة جارفة
قال صديقى الجالس معه بمحض المصادفة ،
كل مساء
كى يذكرنى بقصة له [للزقازيق دفء القرفة]
فرددت عليه ، ولم يسمعنى لسوء الأحوال الجوية :
" الحزن .. يهطل على الروح كرخات المطر
وانقطع الخط

أحسست أنه سيدى الحزن بعدما طرق الباب عدة طرقات وتلهيت عنه أنه هو الذى قطع عنى كل الخطوط .. وصيرنى . رغما عنى . واحدا من مريديه

: ما كل هذا العذاب الذى نحتمله ..

وهو يفاجئنا بحضوره الفج

حزن كالصهيل يجلجل فى أعماقى

ولما يرانى أتلهى عنه يتثاءب ثم يعاود هأنذا أراه أمامى

مصطحبا سنوات عمرى ؛ ماذا يحدث إنه يطوى صفحاتى

ويحاصرنى فى الغرفة

حتى صرنا . أنا وهو . وحيدين

قلت ألاطفه ، وقدمت له كوبا من الشاى

وبعض من أنفاس النارجلية

وضع ساقا فوق ساق .. حتى شممت رائحة حذائه النتنة

وساقنى إلى مناطق وأحياء كدت أنساها

هناك .. وتركنى فى النادى منذ عشرين عاما تقريبا

كانت حينها قد أعرضتْ عن تلميحاتى ،

ووقوفى أمامها كالصنم متمليا جمالها الآخاذ

وقبل أن تلبس فستانها الأبيض لتلحق به . كما
هو معتاد فى الأفلام القديمة . لوحت لى
وسافرتْ
ثم قالت لصديقتها : دعيه
" هؤلاء الخياليون يعيشون دوما فى الوهم"
يسافرون فى أحلام يقظتهم ،
: دعيه
يكتب آلامه
وحزنه الغامض
لعله يعى تماما أن الحياة ، لا تمنح نفسها إلا للمغامرين وراء التلال
حيث تناديهم كنوز على بابا

دعيه .. يكتب كلاما جميلا أقرأه فى أوقات فراغى
بعدما أكون أعددت سفرة الطعام لزوجى ، الذى سوف يعود . حتما .
فى موعده

آلــة الزمن الموسيقية

عنـد المغيـب تقريبـا كـان يفتـرش بلكونـة أرضـية ، تكـاد تلامس الشارع؛ كسنوات عمره المهدرة ،

كان يدرك أن الصندوق الحديدى الذى يتكور فيه . الآن . قد أوشك أن يفرَّ بعمره الفائت .

"فـايزة أحمـد" تسـرب غناءهـا الشـجى إلـى مسـامات روحـه " ومعايـا .. وانت معايا "

وتأخذ الآلة الجهنمية عملها على استحياء .. للموسيقى سحر يجر الزمن والمواقف إلى ساحة الحياة ؛ بدأ يشعر أن الفوتيه الذى يحتويه تماما ، يطير الآن مع دنو انتهاء الأغنية ، كانت كل سنوات عمره تغوص فى رماد الحاضر .

لو تمكن من إشعال ضوء واهن فى السبرتاية ، ليصنع شايا، صورة ابنه الذى انتحر تجسدت أمامه .. تغلغلت فى مسامه ملامح متعددة ؛ رأى القهر ثعلبا جبانا يتخفى وراء الأيام والولد لما آلمته كرابيج التكرار أصرَّ أن يرمى للبحر ما تبقى من جسده

آه للأسماك شهوة قاتلة .

رآه يشير بيده

(ها أنت قادم

لامحالة

أنهكتك الحروب

والشاشات

ومرارة الانتظار

استرح

يا حبيبى

.كان الشاى داخلا بقوة فى الغليان .

يضع الولد يده ملاطفا كتف أبيه

الصور لم تفارقه على قدر ما مر من سنوات ....

للشاى مذاق مرٌ

صار غير قادر على تحديد الزمن الذى قرر فيه أن يشرب شايا ويعتاد عليه.

بملعقة واحدة .

كان فى البدء يستطعم المرارة .

سمع زوجته تقول : أنت لست قصيرا إلى الحد الذى تلوم فيه والديك .

تلفت ؛ لم تكن سوى الوحدة ووحشة المغيب تتفشى تماما فى المكان .

فى ذلك الآن كان لا يعلم شيئا عن تأثير الجينات ، ربما لم يسمع بالكلمة إلا قبل إحالته للمعاش .

الأولاد الآن يتقاذفون الكرة ، فينهض الغبار.

قال عندما يكبرون عادة ما يفتحون للأهل بوابة خضراء .

قبل أن تسافر ابنته مع زوجها ، همست فى أذنه . والطائرات كالقطارات تئز أزيزا قبيل الانطلاق . خلِّ بالك من نفسك .. ثم برقت فى عينيها دمعة (أوهكذا كان يظن) لأنها حادثته فى السنة الأولى مرة كل شهر ، بشكل منتظم ؛

ولأن بحر المشاعر دوما إلى انحسار .. كان صوتها يخفت ويبتعد .. يبتعد إلى أن صار حلما بعيدا لم يعد يراوده .

..... آآآآآآه هـ هـ يا فايزه أحمد .. فكر كثيرا أن يقطع الخيط الذى يشد المواقف ويرصها بجوار بعضها .. لايرغب حقا فى قراءة عوامل الزمن وأفاعيله .. فقط عليه أن يستطعم الشاى على هذا الشكل .. ربما تكون قد برقت فى عينيها دمعة .. يراها الآن تسقط على خده .. نعم .

لامست أصابع قدمه الشبشب البلاستيك ، فقام إلى الحمام.. لم يتمكن من الانفلات من المقعد .. جلس قليلا وتذكر الأصحاب، عندما ارتفعت يده بالكنكة الصغيرة التى تكفى كوبين انهمر الماء فى الكوب محدثا صوتا هو الصوت الوحيد تقريبا فى ذلك النهار .

قبل أن تعمل الملعقة فى الكوب، وتصدر أصواتا أخرى ؛

حاول ثانية أن ينهض ليصل إلى الحمام

فى الشارع ارتفعت الكرة ، رآها تثير نزق وهرج العيال .

ظن أنه لم يزل قادر ا على مد يده للكرة

فكر للحظات أن يمسك بها فى المرة القادمة ..

بعد ثوانٍ هزّ رأسه وهمس لنفسه .. فات الميعاد .

ثم أضاف : للحزن جلال يا ولد .

توقف الشريط اللحنى .

ورحلت فايزة .

وآلة التذكر . لم تزل . تنهض باحثة عن وجوه تباعدت ؛ لذلك فقد هرب من الجلوس فى الصالة واستكان فى القفص الحديدى القائم فى الشارع؛ دائما الغبار يغطى الطابق الأرضى . طوال عمره يشعر أنه بحميمية وسط الأماكن والناس

كان يقول الحميمية تتولد بحق حين تعيش فى وسط الناس

ها هو

يمسك بكوب الشاى .

الأولاد يتصايحون ، يسعون بجدية وراء الكرة .

لا أحد منهم يراه

ارتفعت يد أحد المارة بالسلام ، همّ أن برفع يده ، واحتجز كمية من الهواء تمكنه من إصدار صوت .. أى صوت.

إذا تطور الأمر

لما كان العابر لا يرى أحدا ، أشاح بيده للوراء ، واستمر فى طريقه.

عندئذ قال للعابر : تفضل .

تلفت الرجل محاولا معرفة مصدر الصوت الواهن . للحظات . ثم مضى كمن خدعته أذناه .

بتكرار الصوت ثانية أحس الرجل ببعض الحروف التى تهمهم بالتحية .

لم يلتفت هذه المرة ، فقط استمر فى سيره المعتاد، وبذات الجدية أشاح بيده وهو يقول دون أدنى التفاتة : شكرا .

رجل قصير يعشق الظل

هب أنك ارتقيت – ذات مساء متأخر – سطح عمارة عالية – كتلك – على طريق عام يغطيه سواد المازوت ، ويمتد كعامود مخترقا صدر هذه الأحياء .. تماماً .. تماماً كهذى العمارة الخازوق.

صعدت – هكذا – بلا مبرر ، وقت أن غلف الضباب أسطح البيوت وعشش الدجاج.

وحين تطلعت للوراء ، رويدا ، كانت الأيام الفائتة تسحب العمر بخفة باردة ، حاولت الذاكرة أن تطفو بالزمان العابر .. ورويدا .. رويدا تراءت أرض الشونة والعم حامد يبتعد ، يداه خلف ظهره ، يدب بقدمه فوق أشواك برية، وللبعيد يتطلع حيث آخر حدود الشونة وأكوام القطن.. وعربات النقل .. شحن .. وتفريغ .. ضجيج .. ساعتئذ فتش جيب جلبابه الكستور عن كوبون الجاز .. لم يكن .

كما لم يكن إبراهيم سوى لحمة حمراء.

كنتُ أرتكز . بصعوبة . على قدميَّ ، حتى تمرق رأسى . بالكاد . من بوابة صفيح واطئة بفعل الشارع والتراب ، تمرق رأسى فينفتح براح الشونة أمامى ، يحفه سور طينى ودروس الثانوى العام ومباريات كأس العالم فى حجرة وحيدة على يسار البوابة ..

إلى أين انسربت الأيام ؟؟!

إلى مدافن المبرز المجاورة ؟؟! للعم حامد بقصَره الملحوظ ؟! أم لشجيرات الصبار .. كأنه استعاض عن العالم – الآن – بها ؛ ثم انتقل بضعة أمتار ليرقد

فى مقبرة بلا شاهد .. ربما يقوم كل مساء ، دائرا حول أرض الشونة التى سارت سوقا للباعة من كل صنف ولون ، ربما يستند بظهره إلى جدار حجرى من مخلفات حجرة الحراسة .. ويتراءى له زمانه العابر.

[2]

قال العم حامد لا مرأته :

ترعرعت الصبارة ، هزت رأسها بلا اهتمام ، بينما كانت تراقب دخول الشاى فى الغليان .. ناولته الكوب . ونادت إبراهيم ليأخذ الشاى

: نحتاج الرفاعى يا رجل

: أأ ضرب الأرض فيخرج ؟!

كان مغتاظاً لكثرة ظهور الثعابين فى الشونة ولم يقل لها : كله بسبب الشقوق ، تنهدت ولم ترغب في التهوين عليه ..

: أنا خائفة على العيال .

: الثعابين لا تؤذي إلا من يعترضها .

[3]

ذلك الصباح ، كان يرص قوالب الطوب بتأنٍ ويكوِّم فوقها الطين لزجاً في شتاء طوبة ، ثمة شبورة تحط على العم حامد . كادت قدمه تنزلق عندما مررت عليه بكراريس الدرس .

: صباح الخير يا عم..

همهم بصوت خافت.. ناداني قبيل ابتعادى .

التفت للوراء . كان يبدو كطيف وسط الضباب :

: لماذا لا تصطحب إبراهيم معك !!

كان إبراهيم يتطلع للبعيد عندما سألته ، وأجاب .

لا أحب الدروس الخاصة .

انصرفت بلا وداع قائلا :

المرة القادمة

من الذى دفعنى فجأة ، كى ألتفت .. وأراه ثانية .. وحيداً فى شارع طويل ضيق ، يسند بيديه سور الطين ، سور يتداعى ، بلا أحد ..

كان فراغ الشونة هالة من ضوء تزحزح الظلمة . ويثبت المشهد فى ذاكرتى . .. مؤكدأن ورشة الأتوبيس وعزبة التل والمقابر ينامون تحت كثافة الضباب والعجوز يرتعش ، كلما تغلغلت البرودة فى المسام يثبت قوالب الطين – فى مواضعها – بطين لزج . ذلك الصباح ببرودته وضبابه والعم حامد .. هم وقود عربتى المتخلعة الآن.

[4]

قال إبراهيم : حبسوه

يوم معركة المطاوى والنبابيت والسنج ، بين الغرباء القادمين لنجدة أبناء العزبة من فتوات العزبة المجاورة ، قال : كنت أدل السائل على المختبئ وراء الأحواش والمتقوقع فى العيون المهجورة ..أشير يمينا ويسارا كاشارة المرور وأفكر أيمكننى أن أغير مقعدى .. وأمشى عشرين مترا تقريباً لأفتح الباب الصاج ، مزيحا الترباس منجداً أبى ؟!!.. بينما كان لسانى يردد وحد ه مكَرٍ .. مفَرٍ ، مقبلٍ ، مدبرٍ معا كجلمود صخر ، حطه السيل من عل .

[5]

تهدمت تماما .. انفتحت أرض الشونة على بيوت العزبة والمقابر ، مهدها الأولاد للعب الكرة .. بمهارة العفاريت والأيام ، اقتلعوا الأشواك البرية ، ونصبوا حدود ملعبهم بعد العركة تقريباً .. وغاصت بذور القطن فى الشقوق . تلك الشقوق التى التأمت ، بتناقل الكرة بين العفاريت ، وباعتلاء أبناء العزبة أسوار الأحواش والمقابر للتهليل والصفير .

وكانت الحكومة قد خسرت قضيتها ، وتركت المصنع والأراضى المجاورة والشونة ، فتقرفص العم حامد فوق حجر أبيض يؤثره . أمام بيته ذى الغرفة الوحيدة ، وراء ظهره مقبرة أبناء القنطرة شرق وأمامه الشونة

كالأرض البوار ، تعلقت عيناه باللافتة الحديدية الواضحة (أرض ملك)

ورثة عبدالعزيز باشا رضوان

[6]

قبيل الغروب .. يتوقف فى بلكونة غرفته شاخصا للمقابر والكافور والصبار ، والعيال الذين يتقافزون من حوش الباشا على شجرة دقن الباشا ، هابطين إلى مدافن الصدقة .

[7]

كان انتقاله يسيرا ، نسمة صيف . لم تبكه سوى امرأته ، وابنته ، وجيرانه ، بعض أقاربه الحميمين وإبراهيم . ولم يمر بحوش الباشا ، لأنه قدم رأسا من المستشفى أثر نزيف بالمخ ، فأسقطته الإسعاف هنا .. لم يطر بالنعش فقط ارتفع قليلاً بأيادى مشيعيه .. وأسرع .. ربما يكون قد ألقى نظرة للوراء .. على الشونة .. دقيقة واحدة ، قبيل المغرب تقريباً ثم سار فى طريقه .

إختنـــاق

كنا جالسين فى حجرة صغيرة جدا ،
هو مدرس للغة الإنجليزية وأنا.....
يخترق أذنىَّ ضجيج العيال فى الفناء
تذكرت دمعة ابنة صاحبى الراحل،
كانت أربعة عشر ربيعا ،
وتمنيت أن يتمهل الموت قليلا
فالإعدادية تطرق أبوابها

وهى تسرع نحو شهادتها
كى تعود بها،
وترى الفرحة فى عينيى أبيها
كدت أتوقف . فى حضور زميلى . أمام تحليل حكمة الخالق،
وحكمته الخافية فى مسألة تقدير الأعمار
حاول هو أن يقفز بوابات الألم
وسرد لى كيف اشترى السمك بالأمس وأوصى البائعة أن تعده جيدا
وتحشو بطنه ، كى يضعه مباشرة فى الزيت،

سألته : أتعيش وحدك ؟؟
أجاب : منذ تزوجت أختى الوحيدة
عدت و سألته عن والديه
قال : أنا لم أر والدىَّ
كسحابة أوشكت أن تسقط المطر
رأيت عينيه تلتمعان
وهو يحاول عبور بوابة كبيرة
بعدما اختنق بيننا الكلام

إحســـاس

فشل فى تسوية بعض التفاصيل مع أبيها
فترك خطيبته بعد شهرين
ذاق الأمرَّين فى خضم تفاصيل خانقة

وتقدم لواحدة وتراجع قبل أن ينفتح الباب

بعد عام ونصف العام كان طرف الخيط نحو التى كانت خطيبته يجره جرًّا

سأل عن أحوالها

وعاد يطرق الباب

فتح له والدها

اصطحب الشاب معه رجلا ذا مهابة

مخافة أن ينزلق فى حفرة التفاصيل

ولما تكشفت . أثناء الاتفاق . فوهة الحفرة

قال الشاب : حس بى .. اجعلنى ولدك

واطلب عينى

قال الأب وكرر الشاب : خذنى ولدا .. وافعل بنا ما تشاء

أحس الأب بطرف الخيط الذى جعل ابنته ترفض خطابا

واقترب ناظرا فى عينيى خطيب ابنته

فقرأ تفاصيل الخيط ؛

وابتسم .

ولـــــــــد

الولد الذى رأيته فى حلمى يجرى نحو بوابة كبيرة من الحديد
ووجدها مغلقة بالجنازير ، يعلوها الغبار ، كأنها لم تفتح من زمن بعيد
هذا الولد كان يشبهنى
أسقيته القليل من الماء البارد ، وأنمته ، بجوارى

كان يلهو وسط حديقة واسعة ، يمرح ، تواتيه هواجس غريبة مثل تأخره عن المدرسة ، وأن عصا السيد المحترم ناظر المدرسة باتت فى انتظاره ، مع ذلك كان يجرى ، يلعب الكرة مع أقرانه فى حديقة واسعة مزينة بالورود .

الولد تعثرت قدمه فى حفرة صغيرة ونادانى كى أساعده ، كان صوته بعيدا ، كأنه يأتينى من أغوار سحيقة .

وتركته يجرى ، وكنت ألاحظه عن كثب ؛

والتفت على صراخه . تلك الليلة . يأتينى من بعيد

عندما اصطدم

ببوابة مغلقة ، ووقت متأخر

وعصا . مؤكد . أنها كانت بانتظاره

بوابة اتسعت باتساع المدى وضاقت حديقته الواسعة عليه

كأن الزمن الجميل

يعاود الذاكرة

تاركا صرخة الولد فى أذنى

نـــــــــــــداء

" مُـد يدك

واخلع الغمامة عن عينى "

جملة قرأتها فى حوار عابر أثناء مشاهدتى لأحد الأفلام القديمة ، لا أذكر اسمه الآن

ولا أنكر أن تلك الجملة أعجبتنى فى بادئ الأمر

ثم شغلتنى عما سواها
كانت تحضر من وراء المفردات التى تنساب على لسانى حين تعقد الاجتماعات
وأخذت أتأمل أبعاد الجملة ، ومراميها ،
ثم نسيتها كما يقول أرباب اللغة القدامى
نسيتها ردحا من الزمن
ثم عاودتنى . مرة أخرى . كحلم قديم
مع احساس بالذنب ؛ كأننى قمت بربط الغمامة حول أعين بريئة
فحجبت عن هاتين العينين بصيص النور
يا سادتى أنا متعبٌ
من هذ الاحساس
و كل يوم أحاول وحدى الوصول للأعين البريئة ، وأقترب محاولا زحزحة الغمامة لينسرب بصيص من نور
دون جدوى
كنت أرى
فى كل الوجوه التى تمر بى رجاء قديماً
مؤكد أننى سمعته منذ زمن بعيد
ينادى بصوت مبحوح ، ومن ورائه مخرج عبقرى يطالبه أن تكون المفردات خارجة من الحلق كأنها غمغمات أو حشرجات غريق

" مُـــدْ يدك

أرجــوك

واخلع الغمامة عن عينى "

الفهرس

م	العنـوان	ص